



سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تراثنا

عمان
قبل وبعد الإسلام

العدد الثاني عشر



الطبعة الأولى
بإشراف وزارة الثقافة

تراثنا

عُمَانٌ قَبْلَ وَبَعْدَ الْإِسْلَامِ

المحاضرة التي ألقاها الأستاذ عامر علي عمير المرهوي
في مهرجان العالم الإسلامي بلندن (أبريل - يونيو ١٩٧٦)

أكتوبر ١٩٨٠

« إنه لما يثلج النفس أن نرى للمرة الأولى في تاريخ أوروبا الحديث مجموعة من صفوف العلماء المسلمين تتولى عرض الإسلام ومبادئه وقيمه السامية على العالم الغربي عبر هذا المؤتمر الإسلامي الدولي وعلى هذا النطاق الواسع ..

ندعو الله جل جلاله أن يكمل هذا الجهد والسعي بتوفيق من لدنه، وأن يحقق الهدف من عقده والمتمثل في تقديم الإسلام في صورته الصحيحة ، وإبراز معالم حضارته للعالم الغربي » .

قابوس

تقديم

شهدت عمان قبل وبعد الإسلام حضارات عريقة شامخة ،
ما تزال آثارها شواهد حية على عظمة الإنسان العماني ، فقبل
الإسلام نبتت على الأرض العمانية أروع الحضارات العربية ،
حيث أجمع المؤرخون العرب على الإشادة البالغة بالتقدم الحضاري
لمدينة « صحار » قصبة عمان آنذاك فسموها « خزينة الشرق » .

وعندما أشرق فجر الإسلام على يدى الرسول الأعظم صلى الله
عليه وسلم ، خف أهل عمان إلى تنور الفجر الحديد ، مما حدا
بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى أن يقول : « رحم الله
أهل الغبراء (عمان) آمنوا بى ولم يرونى » .

ومنذ ذلك الحين ، وعمان ماضية فى خدمة الإسلام ونشره
والدود عن حياضه فى جميع أصقاع المعمورة ، وبالتالى فقد ساهمت
عمان مساهمة إيجابية وفعالة فى بناء الحضارة الإسلامية العريقة ،
فألف علماؤها الكتب القيمة التى تشرح أصول العقيدة وفلسفتها ،
وما يتبعها من عبادات ومعاملات ، والتى تناول كل صغيرة وكبيرة

من قضايا العلم والمعارف السائدة في مختلف العصور . ليس هذا
فحسب ، وإنما هناك أيضاً مؤلفات في اللغة والطب والملاحة .

ولا يغيب عن البال أن الخليل بن أحمد وابن دريد والملاح العربي
أحمد بن ماجد هم من أهل عمان .

ومن الأدوار التي تعتر بها عمان في العصر الحديث أنها استطاعت
أن تلقن الشيوعية العالمية درساً لا ينسى ، وتحطم صخرة غروره
وخطرسته الإلحادية المتهورة .

وهكذا .. فلا تكاد تلوح فرصة لخدمة الإسلام إلا ويكون
لعمان دور هام فيها .

وتأكيداً لهذا الدور ، وانطلاقاً من توجهات حضرة صاحب
الخلافة السلطان قابوس المعظم حفظه الله ، فقد شاركت عمان
مشاركة إيجابية في مهرجان العالم الإسلامي ، الذي أقيم في الفترة
من أبريل إلى يونيو ١٩٧٦ بالعاصمة البريطانية ، وحضره أقطاب
العلم والفكر في العالم الإسلامي .

وقد وجه صاحب الخلافة السلطان قابوس المعظم رسالة إلى
المؤتمر الذي عقد بهذه المناسبة ، حيا فيها المؤتمرين ، وبارك لخطواتهم
لخدمة الإسلام ، مما كان له أطيّب الأثر في نفوسهم .

وألقي الأستاذ عامر علي عمير الموهوب في هذا المؤتمر محاضرة
قيمة ، تناول فيها مختلف الأدوار والأحداث التاريخية التي شهدتها
عمان :

نص المحاضرة

التي ألقاها الأستاذ عامر على عمير المرهوي
في مهرجان العالم الإسلامي ببلندت
البريل - يونيو ١٩٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

حتى وقت قريب لم يكن العالم يعرف إلا النزر اليسير عن عمان ،
ويعزو بعض المؤلفين عزلة عمان إلى أسباب ندرت الآن أنها بغير
أساس ، كما سنرى من خلال محاضرتنا هذه ..

أما اليوم فقد استردت عمان مكانتها بين دول العالم ، وأخذت
تخطى خطوات واسعة نحو التقدم وذلك بفضل القيادة المستنيرة
لصاحب الجلالة السلطان قابوس المعظم . وهي اليوم تركز جهودها
وتعبيء طاقاتها لبناء مستقبلها على أسس متينة من التعاليم الإسلامية
التي تنتمي إليها ، مستعينة في ذلك بالتكنولوجيا الحديثة و متمسكة
في الوقت نفسه بذاتها وبتراثها الإسلامي والعربي .. وهي إذ تمضي
قدماً إلى المستقبل فإنها لا تنسى ماضيها العريق ، تغترف منه معاني
العزة والتطلع إلى المستقبل بثقة لا حد لها .

إن لعمان تاريخاً عريقاً يضرب بجذوره إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون . ولقد اعتنق أهل عمان هذا الدين طواعية وبمحض رغبتهم ، وكان لهذا أحسن الأثر في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام .. ولقد ساهم الإسلام في إثراء التراث العماني ، كما فتح أمامها آفاقاً واسعة لوضع أسس متينة لحياتها الروحية تنبع من تعاليم الإسلام السمحاء التي بشر بها محمد صلى الله عليه وسلم .

والآن استمبحكم العذر في أن أستهل هذه المحاضرة بعرض سريع لتاريخ عمان قبل الإسلام . وهو جزء يسير مما توفر لنا من بعض المصادر القليلة التي جمعناها من هنا وهناك ، آمليين في أن نتتمكن من اكتشاف المزيد من الأدلة والشواهد عن هذا التاريخ استناداً على عمليات البحث والتنقيب الجارية الآن .

من الحقائق المتفق عليها أن سكان عمان الأوائل أقاموا في قرى منذ العصر الألفى الرابع قبل الميلاد ، أي نحو ستة آلاف عام قبل الآن ، كما كشفت الحفريات الأثرية عن وجود أوان فخارية تم العثور عليها في بعض مناطق عمان ، الأمر الذي يدل على أن عمان كانت لها إتصالات ببعض الأقطار المجاورة ، وأن موانئها وقراها كانت ملتقى لثقافات وفدت إليها من أقطار أخرى قريبة منها

كالعراق وبلدان الخليج وبلوشستان وفارس وتركستان. ويروى لنا علماء الآثار أن أهل عمان كانوا يستعملون هذه الأواني .

كما اكتشفت مقابر يرجع تاريخها إلى العصور الغابرة ، وقد تحدثت البعثة الأثرية الدانماركية التي جاءت إلى عمان عام ١٩٧٢ م ، وهي واحدة من عدة بعثات ، فقالت : لقد تم اكتشاف عدد من المقابر مماثلة لمقابر أم النار ، إلى جانب عدد كبير آخر يعود تاريخها إلى العصر الحديدي .

كما اكتشفت بمنطقة عبري مجموعات من المقابر لها دلالتها الهامة ، وبالتالي فلا وجه للغرابة إن دلت هذه المقابر على وجود مراحل تاريخية عديدة بدءاً بمقابر جمدت نصر للفترة الألفية الرابعة قبل الميلاد ، مروراً بمقابر أم النار للفترة الألفية الثالثة ، إنتهاءً بالعصر الحديدي للفترة الألفية الأولى .

ومما يثير الاهتمام بوجه خاص أن سكان المستوطنات القديمة في عمان قد وصلوا إلى درجة كبيرة من الرقي . ولسوف نطلع على نماذج أكثر وضوحاً لهذا التطور من خلال الأبحاث الحارية في هذا الشأن .

غير أن ثمة من القرائن ما يحمل على الاعتقاد بأن البلاد التي

كانت تسمى مجان إنما هي عمان بالذات ، وإذا صح هذا الاعتقاد كما ترجح هذه الآراء فإن عمان ، أو مجان كما كانت تسمى ، قد دخلت في علاقات تجارية واسعة مع الحضارات القائمة آنئذ كالعراق ووادي الأندوس .

وفي كتاب « الإمارات المتصالحة » يشير مؤلفه دونالد هولي إلى أن ملوك « أور » الذين عاشوا قبل الميلاد بألفى عام كانوا يتبادلون التجارة مع عمان ، ويصدرون إليها الشعير والملابس مقابل النحاس ، كذلك يشير هولي إلى تجارة العاج والبامبو والأحجار الكريمة وأوكسيد الحديد :

وقد وردت إشارة إلى ازدهار مثل هذه التجارة في اللوحات التي اكتشفت في مدينة بابل بالعراق ، وكلها تؤكد أن السفن التجارية العمانية كانت ترتاد موانئ « أور » محملة بمختلف السلع والمنتجات ، وكان النحاس من أهم الصادرات العمانية ، وكان يصدر في مقابل الفضة وزيت الطعام والمنسوجات والمصنوعات الجلدية .

ولقد ورد في تقرير بعثة من علماء الآثار التابعين للجامعة « هارفارد » ، بعد عمليات مسح قامت بها في بعض أرجاء عمان

عام ١٩٧٣ : أن هناك من الدلائل ما يشير إلى وجود عمليات لصهر النحاس في عمان في أربع من مناطق التنقيب هي ' همد والباطنة والظاهرة وأبرا .

كما ارتبط اسم عمان بتصدير كميات من النحاس إلى بلاد ما بين النهرين .^١

والمناجم الأربعة التي اكتشفتها بعثة هارفارد تقدم أول دليل حقيقي على أن عمان من أوائل البلدان التي كانت تستخرج النحاس .

وتستطرد البعثة فتقول أن هناك أدلة كثيرة تشهد بأن العمانيين كانوا يستخدمون وسائل ري متطورة في تلك الفترة من التاريخ ، كاقامة السدود الواطئة لحصر المياه الجارية في منطقة همد ، وإخصاب الأراضي الزراعية وذلك عن طريق غمرها بالطمي .

كما اكتشفت البعثة بقايا بيوت سكنية كبيرة مقامة فوق أساسات من الأحجار والتحصينات القوية .

وبوجه عام فإن كافة الأدلة المتوفرة بهذا الشأن تؤكد ما سبق أن ذكرته من أن عمان كانت مجتمعاً متطوراً في منطقة الخليج خلال العصر الألفي الثالث قبل الميلاد ، وكان يقوم بفلاحة الأرض على أحدث الأساليب ، كما كان ينتج الأدوات المعدنية للاستهلاك المحلي وللتصدير أيضاً .

كذلك فقد سجلت بعثة « هارفارد » وجود سبع مستوطنات أخرى يعود تاريخها إلى العصر الألفى الأول قبل الميلاد ، تضم مبان من الحجر ، وعثر في تلك المباني على أوان وأدوات فخارية ، مما يؤيد أن عمان كانت تلعب دوراً هاماً بالنسبة للمجتمعات الأخرى في الخليج .

وإذا انتقلنا إلى مرحلة أقرب من التاريخ ، نجد أن اللبان يأتي في مقدمة صادرات الجنوب العربي في العصر القديم ، وكان يصل إلى الأقطار البعيدة كروما حيث كانت تجارته رائجة هناك .

واقد بلغت شهرة اللبان العماني في هذه الأصقاع حداً دعا الكاتب الروماني بليني إلى أن يصف الجنوب العربي القديم بأنه أغنى بلدان العالم :

وفي الوقت الذي كتب بليني رأيه هذا كان اللبان العماني يصدر من بلدة سمهرام في ظفار وكانت تعرف عند الإغريق باسم موشكا . ولقد وردت أول إشارة لهذه التسمية في كتاب «The Periplus of the Erythraean Sea» لمؤلف مجهول يحتمل أن يكون إغريقياً ، وذلك في نحو القرن الأول بعد الميلاد ، فقد أشار إليه كميناء بحري أقيم لتصدير منتجات اللبان .

وكانت سفن البلاد الأخرى تتعامل مع رجال الحاشية الملكية على أساس مقايضة اللبان بمنتجات الحنطة والسمن والمنسوجات . ويبدو أن هذا الميناء يقع في منطقة خور روى لوجود أدلة أثرية قوية على ذلك . وقد جاء في مقال لعائلة الآثار الفرنسية الشهيرة بيرين : « وبالتالي فإن موشكا هي بالتأكيد في خور ظفار الآن حيث توجد منطقة خور روى ، غير أنه لا بد من التأكد قبل ذلك مما إذا كان الميناء المشار إليه هو ميناء موشكا بالذات ، أو أنه أحد المستوطنات الأقل أهمية » .

ومن الجدير بالذكر أن اللبان لا يزال يزرع حتى اليوم بكميات وفيرة في جبال ظفار ، وأن علماء الآثار يواصلون أعمالهم في منطقة خور روى لمعرفة طبيعة التاريخ القديم لهذه المنطقة . فلا تزال هذه المنطقة مليئة بالأنقاض ، كما أن الكتابات التي عثر عليها هناك تلقي المزيد من الضوء على جانب آخر من التراث العماني .

والنقطة التي تثير الاهتمام هي محاولة التوصل إلى معرفة تاريخ سمهرام التي كان يعتقد بأن تاريخها يعود إلى القرن الأول بعد الميلاد بينما يسود الاعتقاد الآن بأن هذا التاريخ يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد .

أما وقد سردت لكم في إيجاز تاريخ عمان القديم فلاني أجد نفسي مدفوعاً إلى أن أنتقل بكم إلى الفترة الأقرب من تاريخ هذه البلاد وبذلك نصل إلى لب الموضوع وأعني به تاريخ عمان العربي الإسلامي. إنني أخشى أن لا تكون لدينا أدلة تاريخية متسلسلة في هذا الصدد نسترشد بها في تحديد قسّمات تراث أهل عمان قبل وصول الأزد إليها .. ويقول دونالد هولي في كتابه « الإمارات المتصالحة » أن عمان استهدفت لموجات متعاقبة من الهجرة من الجنوب . غير أن الأزد بزعامة مالك بن فهم هاجروا إليها في القرن الثاني قبل الميلاد وإن كان الدليل ينقصنا لإثبات ذلك .

ومن هنا فلا بد من الاعتماد على المؤرخين العمانيين وحدهم وعلى الأنحص على أشهر هؤلاء المؤرخين ، وهما سرحان بن سعيد ابن سرحان ، وعبد الله بن حميد السالمى ، وقد جاء في ترجمة إنجليزية الحكاية التي رواها سرحان عن كيفية انتقال الأزد بقيادة مالك بن فهم من اليمن إلى عمان ، وقد وردت في كتاب مستر هولي . وتتفق الصيغة التي أوردها السالمى عن غزو مالك بن فهم لعمان مع النقاط الرئيسية في رواية سرحان فيما عدا أن رواية السالمى لهذه الحكاية أكثر تفصيلاً وإيضاحاً ، أو بالأحرى أكبر إيفاء لبطولة

الأزد ، خاصة وأن السالمى قد اعتمد فى روايته على عدد من المؤرخين العرب ، فهو يحدد تاريخ هذا الغزو بألفى سنة قبل الإسلام ، كما يعزى أسباب هجرة الأزد إلى عمان إلى انهيار سد مأرب فى اليمن الذى كان مصدر خير تلك البلاد ورخائها .

وهذا يزيد من صعوبة إثبات تاريخ هذا الغزو من حيث أن فترة الألفى سنة قبل الإسلام تطابق القرن الخامس عشر قبل الميلاد بينما الاعتقاد السائد أن انهيار السد قد تم خلال القرن الأول أو الثانى بعد الميلاد .

وعلى أية حال فإذا افترضنا أن هذه الرواية عن بطولات الأزد مبالغ فيها ، فإن هناك إجماعاً فى رأى على أن الأزد احتلوا عمان وأنهم كانوا أول المجموعات العربية الحديثة التى أقامت حكمها فى البلاد بزعماء مالك بن فهم .

وهناك مصدر عربى آخر يرجح أن بعض القبائل العربية كقبيلة عاد وثمود وطسم وجديس قد استوطنت عمان قبل أن يحتلها الفرس بزمن طويل .

وقد أعقب احتلال مالك لعمان فترة من الهدوء والاستقرار تخللتها جهود مركزة لتثبيت دعائم الحكم وإنشاء جهاز حكومى منظم .

(م ٢ - عمان قبل وبعد الإسلام)

وقد تلا هذا وصول موجات أثر موجات من قبائل الأزدي . وهؤلاء هم الذين أطلقوا على هذه البلاد اسم عمان تيمناً باسم أحد الأودية في اليمن .

وعلى حد قول السالمي فقد أخذ الأزدي يتوافدون على عمان حتى ملأوا كل شبر فيها مكوّنين بذلك وحدة وطنية متماسكة بزعامة قائدهم مالك بن فهم .

وإذا نَحِينَا جانباً عنصر المغالاة في وصف بطولات الأزدي في ساحة الحروب ، فإن المؤرخين العرب لا يراودهم أي شك في صدق هذه الروايات .

ويقول مايلز في كتاب « بلدان وقبائل الخليج » إننا لو أغضضنا الطرف عن بعض المبالغة التي وردت في كتاب « كشف الغمة » لسرحان بن سعيد ، فإن هذه الروايات قد اعتمدت على القصص المأثورة عن العرب ، وبالمالي فيمكن الاعتماد عليها .

إن اعترافاً كهذا من كاتب ينتمي إلى الغرب يضيف وزناً كبيراً على كتابات المؤرخين العرب أمثال سرحان ابن سعيد الذي بذل ونخبة من أمثاله جهوداً مضنية لتسجيل تاريخ هذه الأمة .

أما فيما يختص بعرب عمان ، فقد جرى العرف على إرجاع

نسبهم إلى قبيلة الأزد العربية ، بل إن كتب التاريخ العماني تتضمن
أسماء القبائل التي هاجرت إلى عمان وأسماء رجالها ورؤسائها ،
كما أن هذه العادة لا تزال متبعة إلى يومنا هذا في عمان ؟

؛ ولقد أشار السالمى في مؤلفه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان »
إلى أسماء رؤساء القبائل العمانية التي نزلت إلى عمان بعد وصول
مالك بن فهم إليها ، ممن لا تزال ترتبط بصلة نسب إلى القبائل
العمانية الراهنة ، ولعبت دوراً هاماً في تاريخ هذه البلاد .

ويهتم العمانيون - كغيرهم من العرب - بأسماءهم القبلية اهتماماً
كبيراً ، ويحتفظ كثير منهم بشجرة العائلة التي ينتمى إليها ويتوارثها
الخلف عن السلف .

ولقد استتبع هجرة قبائل الأزد إلى عمان وصول مجموعات
قبلية أخرى من أصل عدنان نزلت من الشمال .

ومن المعروف أن القبائل العمانية تتفرع كلها من قبيلتين عربيتين
رئيسيتين إحداهما قبيلة اليمانيين الذين هاجروا إلى عمان بصحبة مالك
ابن فهم أو بعده ، والأخرى قبيلة العدنانيين الذين نزحوا إلى عمان
من شمال اليمن وذلك بعد هجرة الأزد إليها .

ويسجل السالمى قائمة بهذه المجموعات القبلية مبيناً أسماء زعمائها ؛

وقد لا تسمح لي هذه المحاضرة بأن أسترسل في الحديث عن هذا الموضوع . وكل ما أود أن أقوله هو أن هناك عدداً من المؤلفات التاريخية تلقى الضوء على هذه الحقبة من تاريخ عمان ، وعلى موضوع الأنساب القبلية ، وأنه ليسعدني أن أحيل المهتمين بهذا الموضوع إلى الترجمة الإنجليزية لكتاب سرحان بن سعيد « كشف الغمة » ، وهي بعنوان « تاريخ عمان » ، ويقرر مايلز أن النص الأصلي لهذا الكتاب قد تم تأليفه في مدينة أزكي الواقعة في الداخلية ، وقد عثر عليه الكولونيل « أي . سي . روس » في عام ١٧٢٨ ميلادية ، وطبعت ترجمته الإنجليزية في كلكتا بالهند ، وظهر في مجلة : « Journal of Bengal Asiatic Society »

ويقال أن مالك بن فهم قد امتد حكمه زهاء سبعين عاماً ، وأنه عاش حتى بلغ ١٢٠ سنة من العمر ، وقد جاءت وفاته غيلة على يد أصغر أبنائه وأحبهم إلى قلبه « سليمة » الذي هرب من البلاد بعد الحادث إلى كرمان .

ولا يوجد دليل على الأحداث التي شهدتها عمان في أعقاب وفاة مالك ، وإن كان من المرجح أن أبنائه ظلوا يتناوبون الحكم إلى أن انتقل منهم إلى أسرة أخرى من الحكام ، هي أسرة بني شمس ،

وهى فرع من قبيلة الأزد التى وفدت إلى عمان بعد وصول مالك إليها
وكان يتزعمها معولة بن شمس .

ولا تتحدث السجلات التاريخية عن الكيفية التى تم بها انتقال
الحكم إلى أسرة بنى شمس ، وكل ما نعرفه عن الموضوع ما ورد
على لسان المؤرخ العماني السالمى الذى يقول : « إن أول ملك يتولى
الحكم من هذه القبيلة هو عبد العزيز بن معولة بن شمس ، ويصفه
بأنه كان حاكماً قوياً ونشطاً ، امتد حكمه إلى أبعد من اليمامة والبحرين »

على أن كتب التاريخ تتحدث عن أسرة بنى شمس فتقول أنها
استمرت تحكم البلاد حتى ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان
يحكمها يومئذ جيفر وعبد ابن الجندى بن المستكبر .

ولا نعرف على وجه الدقة ما إذا كان هذا الحاكم قد أسلم مع
من أسلم أم لا ، وإن كانت بعض الروايات ترجح أنه توفى قبل
دخول العمانيين إلى الإسلام :

وعلى أية حال فإن العمانيين اعتنقوا الإسلام خلال حكم الأميرين
جيفر وعبد ابن الجندى ، وهذا يميّط اللثام عن كيفية دخول
العمانيين إلى الإسلام .

وقد نلتزم هنا بالاعتماد على المؤرخين العرب الذين تطرقوا إلى

هذا التاريخ بكثير من الإنصاف والإدراك رغم اختلاف التفسيرات والتأويلات ، ومن هنا يمكننا أن نثق في أقوالهم بشكل عام .

وهناك أكثر من رواية عن كيفية دخول العمانيين إلى الإسلام ، إذ يقال أن مازن بن غصوبة هو أول من اعتنق الإسلام ، وكان من سكان سهايل في الجزء الداخلي من البلاد .

وتقول الرواية أن مازن بعد أن علم بأمر الدعوة الإسلامية سافر إلى المدينة وأسلم على يدى الرسول صلاة الله وسلامه عليه ، ثم تبعه عدد آخر من العمانيين .

كذلك من المحتمل أن يكون بعض العمانيين قد أسلم قبل وصول عمرو بن العاص مبعوثاً من النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمان ، وكان على حكم البلاد يومئذ عبد وجيفر ابنا الحندي اللذان خلفا أباهما على الحكم .

وقبل أن نأتى على ذكر قصة عمرو بن العاص يجدر بنا أن نتعرف على الوضع العام في عمان قبيل دخول الإسلام . وتذكر كتب التاريخ أن قبائل من الأزدي وعدنان بزعامة الأميرين عبد وجيفر كانت تحكم البلاد في ذلك الوقت ، وأنه وفقاً لبنود الهدنة القائمة بين العمانيين والفرس يومئذ كان الفرس يحتفظون بحامية

عسكرية لهم قوامها أربعة آلاف رجل ، وكانت تعسكر في حمستجرد قرب "صحار" كما كانت هناك أقليات من المسيحيين واليهود ، وربما كان السواد الأعظم من سكان عمان يعبدون الأصنام .

؛ وكما ورد في التاريخ الإسلامي فإن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قد أوفد عمرو بن العاص رسولا إلى عمان بكتاب منه إلى حاكمها عبد وجيفر ، وذلك في العام الهجري التاسع ، يدعوهم إلى الإسلام ويروى السالمى عن الوافدين نص خطاب الرسول إلى أهل عمان : —

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجندى—

السلام على من اتبع الهدى .

أما بعد فإنى أدعوكم بدعاية الإسلام أسلما تسلما
فإنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق
القول على الكافرين ، وأنكما إن أقررتما بالإسلام
وليتكما ، وإن أبديتما فإن ملككما زائل عنكما وخيل
تطأ ساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما .

وكان الكتاب يحمل ختم النبوة الذى يقول « لا إله إلا الله

محمد رسول الله » .

وربما كان هذا ما دفع بعض المناهضين للإسلام ، إلى إتهام
العمانيين بأنهم لم يعتنقوا الإسلام من منطلق الإيمان به ، وإنما خوفاً
منه وبدافع المصلحة والضرورة ، وأنه بعد أن رأى العمانيون كيف
انتصر محمد صلى الله عليه وسلم على اعتداء بني قومه عليه وعلى
رسالته النبوية ، خشوا من زحف قوات المسلمين على بلادهم ،
كما أنهم وجدوا في جيوش المسلمين سنداً لهم في مقاومتهم للإحتلال
الفارسي للبلاد . على أن هذه مجرد تكهّنات ليس لها ما يبررها .

والحقيقة هي أن العمانيين بعد التشاور بين زعماء البلاد وكبارها
وعلى الأخص بعد التحقق من هوية الرسالة النبوية والتعاليم التي كان
يبدش بها هذا الدين ، اتخذوا بالاشتراك مع كافة الزعماء قراراً جماعياً
بقبول الإسلام ديناً حنيفاً والإلتزام بتعاليمه السمحاء .

وبالنسبة للحامية الفارسية ، فلإنها عندما رفضت الدخول في
الإسلام ، قام الأزد أنفسهم بطردهم من البلاد ، وبدون أى مساعدة
عسكرية من أية جهة أخرى .

وعلى ذلك فلقد جاء الإسلام إلى عمان ليبقى وينتشر . ولما كان
جيفر وعبد نفساهما قد آمنا به ، فإنهما ناشدا القبائل أن تحذو حذوها .
ولابد أن نسلم بأنه كان بديهياً أن يستغرق تحول عمان كلها إلى

الإسلام بعض الوقت ، وأن تندثر بصعوبة بعض التقاليد القائمة من قبل مجيء الإسلام ..

ولم يكن ذلك ليتحقق إلا بعد قدر كبير من شرح تعاليم الإسلام ، ولذلك عرف عن العمانيين فيما بعد تمسكهم الشديد بالعقيدة الإسلامية والمشاركة في نشرها .

وبدأ الأتباع الجدد للإسلام يتشربون تعاليم الدين الجديد من المبعوث الذي أوفد إليهم لدعوتهم إليه ، وهو عمرو بن العاص الذي أقام في عمان حتى غادرها عند سماعه بوفاة النبي .

وإذا افترضنا أن تاريخ وصول عمرو إلى عمان — في العام التاسع من الهجرة — كان صحيحاً ، فإن معنى ذلك أنه بقي في عمان لفترة لا تقل عن عامين ، كأخ مسلم يلقي الترحيب ، وكشخصية لها إحترامها الكبير ، وخلال هذه الفترة ، أوصل إلى شعب عمان بقدر ما يستطيع تعاليم عقيدتهم الجديدة .

وعندما اضطرت وفاة النبي إلى الرحيل ، صحبه عبد وعدد من كبار شخصيات عمان ، ومجموعة من رجال الأزد .

وأمام المهاجرين والأنصار ألقى سيدنا أبو بكر كلمة ترحيب بالوفد العماني قال فيها : يا أهل عمان ، إنكم أسلمتم طوعاً ، ولم يظاً

رسول الله ساحتكم بخف ولا حافر ، ولا جشتموه ما جشمه غيركم
من العرب بفرقة ولا تشتت شمل ، فجمع الله شملكم على خير ،
ثم بعث إليكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح فاجبتموه
إذ دعاكم على بعد داركم وأطعتموه إذ أمركم على كثرة عددكم ،
فأى فضل أبر من فضلكم وأى فعل أشرف من فعلكم . كفاكم قول
رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً إلى يوم الميعاد . ثم أقام فيكم
عمرو ما أقام مكرماً ، ورحل عنكم إذ رحل مسلماً . وقد من الله
عنكم باسلام عبد وجيفر ابني الجلندي ، وأعزكم الله به وأعزه بكم .
وكنتم على خير حال حتى أتتكم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فأظهرتم ما يضاعف فضلكم ، وقمتم مقاماً حمدناكم فيه وشخصتم
بالنصيحة وشاركتهم بالنفس والمال فيثبت الله ألسنتكم ويهدي قلوبكم .

واقعد كانت العلاقات بين عمان والمدينة على أفضل حال في عهد
الخليفة أبو بكر ، باستثناء حادثة واحدة كانت وما تزال شمل جدل ،
وأعني بذلك معركة دبا — وهي بلدة قريبة من صحار . . شمال غرب
مسقط .

فلدينا رواية عن معركة عنيفة دارت في هذه البلدة بين قوات
المسلمين بقيادة الأمرين عبد وجيفر ، وبين قوات « المرتدين » . -

الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة النبي ، في عهد أبو بكر بقيادة شخص يدعى « ذو التاج لقيط بن مالك الأزدي » ، وهو الذي نادى بنفسه نبياً ، طبقاً لهذه الرواية .

ومصدر هذه الرواية هو المؤرخ العربي الشهير ابن الأثير ، الذي نقل « مايلز » عنه بافاضة ، وليس بمجرد عبارات أو تلميحات قليلة .

وعلى سبيل المثال فإن مايلز يقول — وأنا هنا أنقل عنه — رغم أن ممثلي الغالبية العظمى من قبائل عمان الذين اجتمعوا في نزوى ، قد قرروا إطاعة النبي الحديد والتمسك بدعوته ، فإن بعض القبائل كانت في عزلة تامة عن الحركة الحديدية . ومن بين قبائل الأزدي الذين كان متوقفاً أن يتبعوا قيادة رؤسائهم القبليين ، ظل بعضهم متمسكاً بعقائدهم الوثنية ، وظهر من بينهم قائد جديد طامع ومغامر يقود معارضتهم لإبنى الجندى .

ولقد كان هذا القائد هو ذو التاج لقيط بن مالك — أحد شيوخ الأزدي — ولكنه من قبيلة غير معروفة ، وقد عارض قبول أتباعه للتعالم الحديدية التي أتى بها عمرو بن العاص .

ويستطرد قائلاً : « بعد أقل من عامين من عودة الوفد (يعني

الوفد العماني إلى النبي) ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم المصلح العظيم والداعي إلى التوحيد ، قد مرض ومات في العام الحادي عشر للهجرة . وفي ذلك الوقت كانت كل القبائل والأراضي العربية تحت طاعته ، ولكن مد الانتصار لم يكن قد بدأ يتدفق خارج حدود الجزيرة العربية .

كانت وفاة النبي صدمة للمؤمنين بالوحي الإلهي ، كادت تهز أركان الدين الجديد . وانفجر التمرد في الحال في كل المناطق النائية من الجزيرة العربية ، وكذلك في أماكن قريبة من المدينة .

وثار التمرد في عمان مثلما حدث في بقية الأجزاء ، وسارع عمرو بن العاص بالعودة إلى الحجاز للإبلاغ عما حدث .

ويقول مايلز هذا القول في موضع ، ولكنه يعترف في موضع آخر بأن « الأميرين ولدى الجندى ظلاً متمسكين بموقفهما ، مع تشبث كثير من القبائل بشدة بإسلامها » .

وقبل أن نستطرد ، يجب أن نحاول تحليل الموقف قليلاً .

فإن القول بأن وفاة النبي كانت صدمة للمؤمنين بالوحي الإلهي لا يمكن أن يمر بدون تفنيد .

ذلك أن المؤمنين الصادقين كانوا يعلمون ويسلمون من البداية

بأن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم عرضة للموت ، وأنه سيرحل
عن هذا العالم في يوم من الأيام .

وهذا أمر يتفق مع تعاليم القرآن الكريم في قوله تعالى : —
« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات
أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله
شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » .

وهذه الآية ذاتها هي التي استشهد بها سيدنا أبو بكر وهو يذكر
مسلمى المدينة بأن وفاة النبي ليست نهاية الإسلام . كما قال لهم
بعبارات لا لبس فيها : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ،
ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » .

ومن المؤكد أن خبر وفاة النبي كان خبراً محزناً للمؤمنين ،
ولكنه لم يكن له وقع الصدمة بالطريقة التي ذكرها بها مايلز .
وهؤلاء الذين انهار إيمانهم بعد وفاة النبي ، لا بد وأن وراءهم
دوافع أخرى .

أما الحديث عن التمرد ضد الإسلام ، والذي افترض أنه يقصد
به انهيار العقيدة بين المرتدين ، فقد أوردها بطريقة توحى بأن كل
العمانيين قد ارتدوا ، بينما هو نفسه يعترف بأن عبد وجيفر ظلا على

إيمانهما القوى ، وأن كثيراً من القبائل تمسكت بشدة بالإسلام :
أى تناقض في العبارات هذا ١٢ ..

إن عمان كدولة تحت حكم أميرها (عبد وجيفر) قد تمسكت
بشدة بالإسلام في وقت حرج ، ولو كان إيمان العمانيين بالدين
الحديد موضع جدل ، لأصبح في إمكانهم التحول إلى مرتدين
وقطع علاقاتهم مع المدينة ، ومواجهة النتائج ، ولكن ذلك ما لم
يفعلوه ، لأنهم قبلوا الإسلام مختارين وباقتناع كامل .

! والشخص الذى يفترض — طبقاً لرواية ابن الأثير — أنه قاد
معركة دبا ضد المسلمين مشكوك في أصل نسبه . بل إن مايلز نفسه
يقول أن قبيلته غير معروفة ، رغم أنه يزعم وجود صلات له
بالأزد . ثم أن اسمه غير شائع بين القبائل العمانية ، ويعترف مايلز
بأنه لم يعتنق الإسلام أبداً .. وبالتالي لا يمكن أن يكون مرتداً .

وبعبارة أخرى — لا يمكن أن يقال عنه أنه تخلى عن عقيدة
لم يكن قد اعتنقها من قبل . أما عن معركة دبا التى قيل أنها وقعت
بين مسلمين ومرتدين ، فأمر مشكوك فيه ، ولم يكن مقبولا من
جانب المؤرخين العمانيين .

... والمؤرخ السالمى يدحض بشكل قاطع رواية ذى التاج ، ويستند

إلى مصدرين وثيقين ، ليوضح حقيقة ما حدث في دبا ، طبقاً لما ذكره العويى في كتابه الأنساب ، فإن حادثة دبا وقعت في نهاية خلافة أبي بكر تقريباً ، عندما أرسل حذيفة ابن محصين الغلفاني إلى عمان لجمع الصدقة .

وفي دبا ، طلب جامعو الصدقة من نسل الحارث بن مالك ابن فهم دفع الصدقة ، وعندما اقتربوا من امرأة طالبين منها شاة مسنة عرضت أن تقدم عتوداً أو عناقاً بدلا من الشاة . ولكنهم رفضوا وأخذوا ما أرادوا . وصرخت المرأة قائلة « يا آل مالك .. » وعندما سمعها حذيفة اعتبرها دعوة جاهلية ، وخشى أن يكون هؤلاء الناس قد تركوا الإسلام ، فأغار عليهم وأخذ منهم بعض السبايا معه إلى المدينة .

وتستطرد هذه الرواية قائلة بعد هذه الحادثة ، قام وفد مكون من سبيعة بن عراك الصيلمى ، والمعلا بن سعد الحمamy ، والحارث ابن كلثوم الحديدي ، بالسفر إلى المدينة ليشرحوا لسيدنا أبي بكر حقيقة ما حدث ، وليؤكدوا له أن أهل دبا لم يتخلوا عن عقيدتهم ، وأنهم لم يمنعوا الصدقة ، بل قد عجل عليهم حذيفة ، واستطردوا قائلين : وكففنا أيدينا إلى أن آتيناك . وبعد بعض المداولات أمر عمر برد السبايا إلى عمان .

وطبقاً لرواية الشيخ خلف بن زياد البحراني ، فإن سيدنا أبا بكر
أوفد البعض إلى عمان لجمع الصدقة ، وأن العمانيين جميعاً أعطوا
الصدقة باستثناء امرأة من أهل دبا شاجرت بعض جامعي الصدقة ،
وزعمت أنهم أخذوا كل ما كان مقرراً أن تدفعه لهم . ولكنهم
تمسكوا بأن عليها أن تدفع أكثر . فتنازعا في ذلك فقرعها أحدهم
قرعة ، فاستغاث ببعض أهلها ، فأغاثوها ، وتواقعوا مع الذي
قرعها ومن معه ، وتنادوا عند ذلك يا « آل بني فلان » .

قال الشيخ خلف وكانت دعوة جاهلية ، ويقال أن من دعا بها
حل دمه حين يدعو بها أو يتوب . فاقتتلوا ما شاء الله وظهر
جامعو الصدقة عليهم ، وجاء حذيفة الغلفاني وكان ولي ذلك فسي
أهل دبا ، وفيهم ذرية من لم يقاتلهم من النساء والولدان ، وذرية
من كان قد غاب أو كان قد مات وهو مسلم ونساؤه .

وهؤلاء الناس لم يحدث أن تخلوا عن الإسلام قط ، كما لم يمتنعوا
عن دفع الصدقة ، وتقول هذه الرواية أن حذيفة سبي كل أهل دبا ،
كما تردد أيضاً أن سيدنا عمر هو الذي أمر باطلاق سراح السبائيا ،
وأنه أعطى كل واحد منهم تعويضاً قدره ثلاثمائة درهم ، ويبدو أن
هناك دلالات قوية على أن حذيفة ظل بعد ذلك يحكم عمان ممثلاً
للخليفة .

وأثناء فترة خلافة عمر وضعت عمان تحت حكم عثمان بن العاص الثقفي ، الذي كان مقره في البحرين .

وطوال هذا الوقت كان يحكم عمان عبد وجيفر ، اللذان كانت علاقتهما على أفضل ما يكون مع أبي بكر وعمر ، وتمسك الإثنان بالولاء التام لكل من الخليفة أبي بكر والخليفة عمر ، وأرسلا الصدقة السنوية بلا أى نقص .

ويمكن وصف عهد عبد وجيفر بأنه عهد سلام ، ورخاء ، وتمسك بأهداف الدين ، وأنه شهد بداية رعاية النهضة الأدبية .

وليس هناك سجل عن وقت وفاة عبد ، ولكن يبدو أنه مات قبل جيفر ، لأنه عندما مات جيفر في نزوى في العام الثلاثين للهجرة فإن عماد — ابن أخيه — هو الذى تولى الحكم ، أثناء خلافة عثمان .

لنؤوبالرجوع إلى كتاب الشيخ سالم بن سليمان الحارثي « العقود الفضية » في أصول الإباضية ، فإنه يحدثنا عن أنه وفقاً لما ذكره المؤرخون العمانيون ، فإن أبا بكر ترك جيفر وأخاه يحكمان عمان ، وجعل لهما أخذ الصدقات من أهلها وحملها إليه ، ولم يزالا في عمان متقدمين إلى أن ماتا . ثم خلفهما عباد بن الجلندي (ربما هو في الحقيقة حفيده) خلال فترة خلافة عثمان وعلي . وعندما دب الخلاف ،

وانتقل الأمر إلى يد معاوية ، فإن عمان لم تخضع لحكم معاوية إلى أن جاء عبد الملك بن مروان إلى الحكم واستعمل الحجاج على العراق ، وكان سليمان وسعيد ولدا عباد يحكما عمان ، واحتل الأمويون عمان .

واستمر هذا الاحتلال حتى مجيء حكم العباسيين عندما تولى عبد الله بن محمد السفاح السلطة ، وأصبح أول حاكم عباسي ، وقد عين عمه سليمان بن علي واليا على البصرة مع تبعية البحرين وعمان لها . وقام سليمان بدوره بتعيين جناح بن عباد الهنائي كنائب له على عمان .

وكانت هذه الفترة بالنسبة لعمان فترة نزاع وخلافات بالمقارنة بفترة الهدوء ، والرخاء ، والازدهار الثقافي ، وهي الفترة التي سبقت احتلال الحجاج للبلاد .. وكانت فترة تناقضات نتجت عن معركة صفين بين قوات علي ومعاوية ، والتي أدت إلى خلافات مذهبية ، وإلى خسائر مؤسفة في الأرواح .

ومع أن موضوع هذه التناقضات ليس وارداً في صلب هذه المحاضرة التي لا تهدف إلى الخوض في جدل مذهبي ، إلا أنه من الضروري أن نستعرض الموقف كما تأثرت به عمان من وجهة النظر الدينية .

ونكون قد إلترمنا الصواب بعدم توريط أنفسنا في قصص عن
المعارك والانتصارات ، حيث لا أعتقد أننا جئنا هنا لكي نفعل ذلك ،
وكل ما أرغب في محاولة القيام به ، هو أن أوضح كيف خرجت
عمان من هذه الخلافات بوحدة مذهبية كانت عرضة لتحريفات كثيرة؟
فبعد معركة نهروان ، تشتت الخوارج ، ولا يوجد أى دليل
يشير إلى أن أى قوات عمانية قد اشتركت في هذه المعركة ...
ويفترض أن بعضهم قد هرب إلى عمان .

أما كيف جاء ارتباط الأباضيين العمانيين بالخوارج ، فهذا
ما يحتاج إلى تفسير ، كما يلزم تحديد المعنى التام لكلمة خوارج ،
كذلك بحب دراسة وجهة النظر الأباضية في هذا الأمر دراسة
موضوعية ، وبكل تجرد .

ذلك أن إصدار حكم على أناس بصورة عاطفية ، وتوجيه أصبع
الاتهام إليهم بدون الرجوع إلى الحقائق ، هو قول لا يؤخذ به ،
واتهامهم بالهرطقة ، هو إتهام لا يمكن اغتفاره .

ومما يؤسف له أن كاتباً له مكانة مايلز ، يلجأ إلى وصف
الأباضيين بالهرطقة بدون أى أساس ، واني لأتساءل عما إذا كان
بدرك بالفعل مضامين هذه الكلمة التي يعرف هو معناها كما هو

وارد في قاموس أكسفورد « التعارض مع العقيدة السائدة أو التقليدية »

وعلى ذلك ، فإن مايلز عندما يستخدم هذه الكلمة مشيراً إلى
الاباضيين ، لابد وأنه كان يعنى أنهم يحملون أفكاراً متعارضة مع
العقيدة الإسلامية .

وكيف يمكن أن يكون الاباضيون هراطقة في حين أن مذهبهم
قائم على القرآن والسنة ، والإجماع والقياس . ورغم وجود بعض
الخلافاً في التفسير بينهم وبين المذاهب الأخرى ، وهو أمر شائع
عند المسلمين وعند غيرهم من أصحاب الديانات ، ورغم أنهم كانوا
رافضين للسلطة المركزية للخلفاء الأمويين والعباسيين ، فإن الاباضيين
ظلوا مسلمين أقوياء الإيمان منذ عهد عبد وجيفر ، ولم يخرجوا
أبداً عن العقيدة الإسلامية .

وإذا كان هناك محل لاتهمهم ، فهو إتهمهم بالتشدد في إيمانهم ،
وهذا هو ما اتهمهم به أخيراً مؤلفون عديدون . أما كيف يمكن
أن يكونوا هراطقة ومؤمنين شديدي التمسك بإسلامهم ، فهذا
ما لا يمكن أن يكون منطقياً .

والمذهب الاباضى هو من أقل المذاهب التي تلقى فهماً في العالم
الإسلامي ، ولما كانت غالبيتهم يقيمون في عمان ، فإن من الأجدر بنا

أن نحاول تفسير تعاليم هذا المذهب ، وما يمثله بالنسبة للإخوة المسلمين . وبالنسبة لغير المسلمين من المهتمين بهذا الأمر ، وهدفنا الوحيد من ذلك هو أننا نريد أن نبذل بحسب سوء الفهم التي نخيم فوق الأباضية .

وبصرف النظر عن أى خلافات تكون قد قامت بين المسلمين وبعضهم في الماضي ، فإن العالم الإسلامى اليوم يعمل من أجل تضامن شعوبه ، ويجب أن تكون الخلافات في التفسير دافعا أكثر منها عائقا ، كما يجب أن تسود مجتمعاتنا روح الحج ، وهى روح ذلك اليوم الذى يلتقى فيه ما لا يقل عن مليون مسلم سنوياً ، يلبون جميعاً نداء الخالق في صوت واحد « لييك اللهم لييك » .

وقد قيل أن الأباضيين فئة من الخوارج ، ولكن الدراسة الدقيقة لا بد وأن توضح أن الشيء الوحيد الذى يربط الأباضيين بالخوارج هو رفضهم المشترك للتحكيم . وبخلاف ذلك فإن الأباضيين لا يقبلون وصفهم بأنهم خوارج حسب المفهوم الشائع لهذه الكلمة .

وفي الماضي كانت كلمة خوارج تستخدم ، إشارة إلى هؤلاء المسلمين الذين خرجوا للقتال في سبيل الله ، ولكن معناها تحول تدريجياً إلى هذا المعنى المشوه لتصبح وصمة . وهذه الوصمة هى

التي يرفضها الإباضيون ، والخلاف الرئيسي في التفسير بين الإباضيين والحوارج هو الذي قدمه بوضوح الشيخ أبو إسحق إبراهيم الخزيري والشيخ عبد الله بن حميد السالمي ، والشيخ سالم بن حمد بن سليمان الحارثي .

ويمكن العثور على ذلك في كتب « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » و« العقود الفضية في أصول الإباضية » ، كما نشر تفسير مختصر في كتاب « كتاب الوضع » للشيخ أبي زكريا يحيى بن أبي الخير الحناني من نفوسا في ليبيا .

والدخول في تفاصيل هذه الخلافات سوف يأخذ من وقتنا أكثر مما هو متاح ، ويمكن لمن همم متابعة هذه المسألة ، الرجوع إلى الكتب المشار إليها ، والتي أستطيع أن أوكد أنها ستزوده بغذاء وغير للفكر .

وقد يقال أن الخلافات جوهرية وفلسفية وأنها أساساً في مجال التفسيرات ، ومن هذه الخلافات في التفسيرات نشأ عدد من الخلافات الأخرى المترتبة عليها ، في مجال تطبيق النظريات المفسرة .

ولا أنوى الخوض في مناقشة حول الخلافات بين المسلمين ، وكل ما أبغيه هو توضيح موقف الإباضية في مواجهة الحوارج بدون

أى محاولة لإصدار أحكام ، لأن الحكم فى مثل هذه الأمور لله وحده :
فى فترة حكم الأمويين أصبحت البصرة مركزاً رئيسياً للديانة
الإسلامية ، وإذا كان يحق الافتراض بأن الإباضية كانت قد ولدت
كذهب ، فإنه يحق أيضاً الافتراض بأن ولادتها قد تمت فى البصرة ،
وإذا أسلمنا بأن الإباضية ولدت فى البصرة ، فلا بد وأن تسرع
بالإشارة إلى أن العمل بها قد تم فى المدينة ، ولدينا مثل يقول
« باض العلم فى المدينة ، وفرخ فى البصرة ، وطار إلى عمان » .

وعندئذ قد يقول قائل إن الإباضية فى عمان هى قديمة قدم
الإسلام نفسه ، ويقول السالى أن الإباضية ملتصقة بالعقيدة الأصلية
وأنها لم تغبر شيئاً .

وهذا هو سبب وصف الإباضيين فى عمان بأنهم متشددون فى
عقيدتهم ورافضون للتغيير ، وهو ما أرجعه بعض الكتاب الغربيين
إلى عدم التفتح على الفنون والأفكار الحديثة لدى شعب عمان ،
وتلك فكرة خاطئة نسفتها التطورات الأخيرة .

ولنحاول الآن أن نتخيل كيف « طار طائر المعرفة الإسلامية
إلى عمان » وهناك ما يشير إلى الروابط القديمة بين المدينة وعمان ،
وكيف شرب شعب عمان من منهل الإسلام ومن مصدره الأساسى .

فبعد عمرو بن العاص استمر العمانيون على صلة مستمرة
بالصحابة ، وتعلموا منهم الكثير عن الإسلام ، ومن خلال هذه
الصلة برز فقيه شهير اسمه جابر بن زيد ، ولد بقرية صغيرة تسمى
« فرق » قرب نزوى .

ويقال أن تاريخ مولده يتراوح بين العام ١٨ والعام ٢١ بعد
الهجرة ، خلال فترة خلافة عمر بن الخطاب ، ويمكن القول بأن
جابر هو حجر الأساس للأباضية . وقد أمضى طفولته في مسقط
رأسه ، وأظهر رغبة واضحة في التعلم . وقد درس القرآن وهو
صغير ، وتبحر بعمق في الفقه ، وكان تعطشه للعلم لا يروى ..
وغادر عمان وذهب إلى البصرة ، التي سبق أن أشرنا إلى أنها كانت
مركزاً عظيماً للعلم في ذلك الحين .

وأمضى بقية حياته بين البصرة والمدينة بشكل جعله على صلة
بأكبر فقهاء المسلمين حينذاك ، واستوعب منهم كل ما أمكنه استيعابه
من تعاليم العقيدة الإسلامية من كافة جوانبها .

ولقد نسب إليه قوله أنه أدرك سبعين من الذين شاركوا في
موقعة بدر ضمن جنود النبي ، وأنه تعلم منهم كل ما كان ممكناً
أن يعلموه إياه ، باستثناء ابن عباس الذي وصيه « بالبحر » ،

وقد تعلم منه الكثير ، وكذلك من السيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن أبي هريرة ، وأنس بن مالك ، وأبي سعيد الخدري وسيدنا علي بن أبي طالب ، ومعاوية وآخرين كثيرين غيرهم .

وقد ورد أن ابن عباس قد قال للناس « أسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه » .

وعندما أشار ابن عباس إلى أهل العراق في ذلك الوقت ، قال : « عجباً لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا ومعهم جابر بن زيد ؟ » .

وكان ذلك في وقت وجود جابر بالبصرة ، يشرح العقيدة الإسلامية كما تلقاها من معلميه الأصليين .

وقد وصل به الأمر أخيراً إلى أن يصبح هو نفسه معلماً في البصرة ، وأن يكون له أتباع عديدون ، أصبح عدد منهم فقهاء ، ولقد نهل من علمه أباضيو عمان ، وأباضيو أقطار أخرى كثيرة مثل أقطار شمال أفريقيا ، ويحتاج الأمر أن نشير إلى قلة فقط من هؤلاء : منهم مثلاً عبد الله بن أباض ، ومرداس ابن حدير ، اللذان كانا من معاصريه في البصرة ، وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وكأهم من فقهاء الأباضية .

وهؤلاء تبعهم دارسون آخرون ، من تلامذة تلاميذ جابر بن زيد ،

وبينهم شخص يستحق تنويه خاص ، هو الربيع بن حبيب بن عمرو
الفراهيدى الأزدي ، الذى أتم الكتاب الشهير « الجامع الصحيح » ،
وسلسلة الأقوال المنشورة فى هذا الكتاب هى ما يشار إليه بالثلاثية .
وقد اعتمد الربيع بن حبيب أساساً على أبى عبيدة ، وجابر بن زيد ،
وعبد الله بن عباس ، والثلاثة معروفون بأمانتهم التى لا تقبل الشك .

وقد نشر السالمى شرحاً لهذا الكتاب الذى صدر فى أربعة أجزاء .
وقد كتب عز الدين التنوخى — وهو منى من دمشق — مقدمة الكتاب
السالمى « شرح الجامع الصحيح » قال فيها أن ثلاثية الربيع بن حبيب
الأزدى ، وأحاديثها فى مسنده من أصحها رواية وأعلها سنداً ،
ورجال سلسلته الثلاثية الحلقات هم أبو عبيدة التميمى وجابر بن زيد
الأزدى والبحر عبد الله بن عباس ، شيخ جابر وغيره من الصحابة
وكلهم مشهورون ، بالحفظ والضبط والأمانة والصيانة .

وكان الربيع بن حبيب — نفسه — تلميذاً لأبى عبيدة ضمن
مجموعة أخرى من تلاميذه منهم أبو الخطاب المعافى ، وعبد الرحمن
ابن رستم ، وعبد الله بن يحيى الكندى ، والإثنان الأولان هما من
أئمة الإباضية فى أفريقيا ، والكندى من أئمتهم فى اليمن ، وهناك
إلى الآن مراكز للإباضية فى نفوسا وميزاب فى ليبيا والجزائر .

ولقد قال التنوخي وهو يشير إلى الشرح الذي كتبه السالمى ،
أنه واحد من "الفقهاء العمانيين" الذين كتبوا كتباً عديدة ، ولا بد أنه
كان غزير الثقافة وحاد الذكاء ، بحيث استطاع وضع هذا العدد
من الكتب ، خاصة وأنه توفي قبل بلوغه سن الخمسين ، وأنه
كان ضريراً منذ طفولته ، وقد أورد التنوخي في مقدمته ذكر
سبعة عشر كتاباً للسالمى .

وعندما تعمق التنوخي في شرح السالمى ، فإنه تأثر للغاية بعلمه
الواسع ، ووضوحه ، وقوة أسلوبه . كما أثرت فيه أيضاً موضوعية
السالمى ، كما أن السالمى غير متعصب ، وأنه كان يرجع إلى ما كتب
من خارج إطار مذهبه إذا وجد الحق هناك . وقد كان يضع الحق
قبل الناحية المذهبية .

ومن كل ذلك يمكننا أن نستخلص أن المذهب الأباضى أقا
من إسمه ، لأنه يشتق اسمه من عبد الله بن أباض بن تميم التميمي
الذى شب أثناء حكم معاوية بن أبي سفيان ، وعاش إلى وقت
عبد الملك بن مروان ، وكان معلماً كبيراً ومسلماً شديداً الإيمان ،
لم يتهاون في عقيدته أو يسمح لنفسه بأن تغرقه المغريات الدنيوية .

وكانت عقيدته راسخة ، ولم يعرف الخوف إلا من الله ،

ولم يتردد عن قول الحق أو اللجوء إلى القرآن ، وإلى سنة النبي ،
للمحافظة على نقاء الإسلام .

وتعتبر رسالة التائب التي وجهها إلى عبد الملك بن مروان ،
والتي تعتبر طويلة إلى درجة لا يتناسب مجال هذه المحاضرة للحديث
فيها ، تعتبر دليلاً كافياً على ذكائه ، وحميته الدينية .

ويلاحظ يمكن القول أن هناك جذوراً للأباضية ، ذلك المذهب
الذي يلتزم به غالبية شعب عمان حتى هذه الأيام ، هؤلاء الناس
الذين لا يسعون إلا إلى عبادة خالقهم بما يتفق مع كتابه المقدس ،
وسنة رسوله ، هؤلاء الناس الذين يسايرون العصر مع المحافظة على
قدسية عقيدتهم ، هؤلاء الناس الذين يعتبرون كل المسلمين إخوة
لهم في الإسلام ، ويعاملون أصحاب العقائد الأخرى باحترام .

وإن تاريخ الشعب العماني — رغم خلافاته ومنازعاته الداخلية
في الماضي — هو تاريخ شعب قد مد يد الصداقة للجميع باستثناء
الذين حاولوا أن يسلبوه سيادته ، أو الذين حاولوا أن يفرضوا عليه
أفكاراً مناقضة لعقيدته ، كما بلغت إليه من رسول الله عن طريق
أتباعه .

ولم يحدث أن كانت العقيدة الإسلامية أو المذهب الأباضي حائلاً

دون التعاون الدولى أو التقدم التكنولوجى ، وتشهد على ذلك المعاهدات التى وقعها الحكام المسلمون الأباضيون مع الدول الأوروبية على مر التاريخ :

كما أن المبادرة التى اتخذها السيد سعيد بن سلطان بإيفاده أول مبعوث عربى إلى الولايات المتحدة عام ١٨٤٠ ، وإلى الملكة فيكتوريا عام ١٨٤٢ ، هى دليل واضح على بعد نظر الحكام العمانيين ، ومدى اهتمامهم بإقامة علاقات طيبة خارج الإطار المباشر لمنطقتهم ، وتشجيعهم للصدقة مع شعوب أكثر البلاد بعداً عنهم . ولم يعرف المذهب الأباضى التعصب أو المغالاة . وهم لا يؤمنون بالعدوان ضد الذين يتبعون طريقاً آخر .

الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والقرآن إمامنا ، والسنة طريقنا ، والإسلام ديننا ، ونحن نؤمن بالأمر بالمعروف وإتيانه ، والنهى عن المنكر واجتنابه .

رقم الإيداع بدار الكتب ٤١٢٠ لسنة ١٩٨٠

- طابع بجمال العرب
٩ طابع عمار الدين / القاهرة تا ٩٣٢٧.٦

